في التنوير الإسلامي ٤٤

مأزق المسيحية والعلمانية في أوروبا

(شهادة ألمانية)

للقس الألماني الدكتور/ جوتفرايد كونزلن

تقديم وتعليق

د/ محمد عمارة



نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع
أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة ١٩٣٨

تقديم

بقلم الدكتور / محمد عمارة

فى الإسلام ، الحوار ليس مجرد فضيلة ، وإنما هو فريضة . .

ذلك أن الإسلام يجعل التعددية ، فى كل ما عدا ومن عدا الذات الإلهية ، قانونًا وسُنَّة من سنن الله التى لا تبديل لها ولا تحويل . .

فالناس ، الذين خلقهم الله ، سبحانه وتعالى ، من نفس واحدة ، قد جعلهم شعوبًا وقبائل ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ... (١٣)﴾ [الحجرات : ١٣] وجعل اختلافهم فى الألسنة واللغات آية من آياته ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ (٢٢)﴾ [الروم : ٢٢] فغدوا متعددين فى القوميات . . ثم هو ، سبحانه ، قد شاء لهم التعددية فى المناهج ، أى الحضارات والثقافات والعادات والتقاليد والأعراف . . وفى الشرائع ، أى الملل والديانات ﴿ ... لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ... (٤٨)﴾

[**المائدة** : ٤٨] وقضت سنته ، سبحانه وتعالى ، أن يكون سعيهم شتى . . ولا يزالون مختلفين . .

وحتى يتأبد عمل هذه السُّنة الإلهية ، سنة التعددية فى كل عوالم الخلق - فى الإنسان . . والحيوان . . والنبات . . والجماد . . والأفكار . . والأجرام - دعا الإسلام إلى منهاج « **التدافع** » بدلاً من « **الصراع** » فى معالجة التناقضات التى تفرزها الحياة بين الفرقاء المتعددين . . ذلك أن الصراع يعنى أن يصرع طرف الطرف الآخر ، فيخرجه من الساحة ، وبذلك تنتفى التعددية ، وينفرد المنتصر بالميدان ﴿ . . . **صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ (٨)** ﴾ [**الحاقة** : ٧ ، ٨] بينما التدافع هو عبارة عن (حراك . . واستباق) يُعدّل الخلل الفاحش بين الفرقاء المختلفين ، ليعيد العلاقة بينهم إلى مستوى التوازن الوسطى العادل . . وبذلك ينتفى سكون الموات بين الفرقاء المتعددين . . وتنجو التعددية من موات الصراع الذى يصرع به طرف غيره من الأطراف ﴿ . . . **وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ . . . (٢٥١)** ﴾ [**البقرة** : ٢٥١] ، ﴿ . . . **ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤)** ﴾ [**فصلت** : ٣٤] .

ولأن التعارف هو غاية التعددية . . ولأن الحوار هو سبيل هذا

التعارف بين بنى الإنسان . . كان الحوار فريضة من فرائض الإسلام . . والذين يقرءون القرآن الكريم يدركون دوره ، ودور الحوارات المتعددة والمتنوعة المبثوثة فى سوره وآياته ، فى صياغة « الروح الحوارية » عند الإنسان المسلم ، تلك التى تجسدت فى علاقات الإسلام وأمته وحضارته مع الآخرين . .

تلك هى حقيقة الموقف الإسلامى - كما أومن به - فى رؤية « الآخرين » . . وفى فريضة الحوار مع « الآخرين » . .

* * *

مع كل ذلك ، فتجربتى مع الحوارات الدينية - وخاصة مع ممثلى النصرانية الغربية - تجربة سلبية ، لا تبعث على رجاء آمال تذكر من وراء هذه الحوارات ، التى تقام لها الكثير من اللجان والمؤسسات ، وتعقد لها الكثير من المؤتمرات والندوات واللقاءات . . وينفق عليها الكثير من الأموال . .

ذلك أن كل هذه الحوارات ، التى دارت وتدور بين علماء الإسلام ومفكريه وبين ممثلى كنائس النصرانية الغربية ، قد افتقدت ولا تزال مفتقدة لأول وأبسط وأهم شرط من شروط أى حوار من الحوارات . . وهو شرط الاعتراف المتبادل والقبول المشترك بين أطراف الحوار . . فالحوار إنما يدور بين « الذات » وبين « الآخر » ؛ ومن ثم بين «الآخر» وبين « الذات » ، ففيه « إرسال » وفيه « استقبال » ، على أمل التفاعل بين الطرفين . . فإذا دار الحوار - كما هو حاله الآن -

بين طرف يعترف بالآخر ، وآخر لا يعترف بمن « يحاوره » ، كان حوارًا مع « الذات » ، وليس مع « الآخر » ، ووقف عند «الإرسال» دون « الاستقبال » ، ومن ثم يكون شبيهًا - فى النتائج - بحوار الطرشان !

إن الإسلام ، والمؤمنين به يعترفون باليهودية والنصرانية كديانات سماوية ، أو رسالات وشرائع فى الدين الإلهى الواحد ، ويؤمنون بصدق جميع أنبيائها ورسلها ، عليهم الصلاة والسلام ، ويرون فى أصول كتبها وحيًا إلهيًا أنزله الله على هؤلاء الرسل والأنبياء ، ويتعبدون ربهم بالصلاة والسلام على موسى وأمه ، وعيسى وأمه ، وسائر الأنبياء والمرسلين فى بنى إسرائيل . . ويرون فى شرائع تلك الرسالات ، التى لم ينسخها التطور ، جزءاً من الشريعة الإسلامية الخاتمة . .

فهم - المسلمون - يعترفون بالآخرين ، اعترافًا تقضى به العقيدة الدينية ، وسنة التعددية . . ويضعون اختلافاتهم معهم فى إطار هذه السنة ، سنة التعددية فى الشرائع الدينية السماوية . .

بل لقد أدخل المسلمون - بعد الفتوحات الإسلامية - العديد من الديانات « الوضعية » - فى فارس والهند والصين - ضمن الديانات الكتابية ، وقال بعض الفقهاء : لقد كانت لهذه الديانات كتب أتى عليها الضياع ! فاعترفوا - « دينيًا » . . وليس فقط «واقعيًا» - بهذا الآخر الدينى . . وطبقوا على أممها وشعوبها قاعدة : «**لهم مالنا وعليهم ماعلينا**» . . التى سنها رسول الإسلام

ﷺ منطلقين من سنته الأخرى التى دعا فيها أُمته إلى أن يسنوا فى التعامل مع أهل هذه « الديانات » سنة التعامل مع أهل التوراة وأهل الإنجيل .

هذا هو الموقف الإسلامى ، الذى يعترف بالآخر الدينى ، ويؤمن بكل النبوات والرسالات السابقة ﴿ ... لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ... (٢٨٥) ﴾ [البقرة: ٢٨٥] و « الأنبياء إخوة لعَلات - أمهات - أمهاتهم شتى ودينهم واحد » - رواه البخارى ومسلم والإمام أحمد - . . والمسلم ، يرى إسلامه الامتداد المكمل لدين الله الواحد ، والميراث الجامع لكل الشرائع والرسالات . . ومع أنه هو « الكافى به الله فَقْدَ ما سواه » ، فلقد أقر كل صاحب دين على دينه ، معتبرًا التعددية فى الشرائع والاختلاف فى الملل سنة من سنن الله التى لا تبديل لها ولا تحويل . . وحساب المخالفين إنما هو لله ، سبحانه وتعالى ، يوم الدين . . ولا يُنْقص هذا الاختلاف أحدًا من أطرافه حظًا من حظوظه فى هذه الحياة الدنيا . .

لكن موقف الآخرين من الإسلام والمسلمين هو موقف الإنكار ، وعدم الاعتراف أو القبول . . فلا الإسلام فى عرفهم دين سماوى ، ولا رسوله صادق فى رسالته ، ولا كتابه وحى من السماء . . حتى لتصل المفارقة ، فى عالم الإسلام ، إلى حيث تعترف الأكثرية المسلمة بالأقليات غير المسلمة ، على حين لا تعترف الأقليات بالأغلبية !

فكيف يكون . . وكيف يثمر حوار دينى بين طرفين ، أحدهما يعترف بالآخر ، ويقبل به طرفًا فى إطار الدين السماوى ، بينما الطرف الآخر يصنفنا كمجرد « واقع » ، وليس كدين ، بالمعنى السماوى لمصطلح الدين ؟!

ذلك هو الشرط الأول والضرورى المفقود ، وذلك هو السر فى عقم كل الحوارات الدينية التى تمت وتتم ، رغم ما بذل ويبذل فيها من جهود ، وأُنفق وينفق عليها من أموال ، ورصد ويرصد لها من إمكانات !

* * *

أما السبب الثانى لعزوفى عن المشاركة فى الحوارات الدينية - التى أُدعى إليها - فهو معرفتى بالمقاصد الحقيقية للآخرين من وراء الحوار الدينى مع المسلمين .. فهم يريدون التعرّف على الإسلام ، وهذا حقهم ، إن لم يكن واجبهم .. لكن ، لا ليتعايشوا معه - وفقاً لسنة التعددية فى الملل والشرائع - وإنما ليحذفوه ويطووا صفحته بتنصير المسلمين !

وهم لا يريدون الحوار مع المسلمين بحثاً عن القواسم المشتركة حول القضايا الحياتية التى يمكن الاتفاق على حلول إيمانية لمشكلاتها .. وإنما ليكرسوا - أو على الأقل يصمتوا - عن المظالم التى يكتوى المسلمون بنارها ، والتى صنعتها وتصنعها الدوائر الاستعمارية ، التى كثيراً ما استخدمت هذا الآخر الدينى فى فرض هذه المظالم وتكريسها فى عالم الإسلام ..

فحرمان كثير من الشعوب الإسلامية من حقها الفطرى والطبيعى فى تقرير المصير . . واغتصاب الأرض والسيادة ، فى القدس وفلسطين . . والبوسنة والهرسك . . وكوسوفا . . والسنجق . . وكشمير . . والفلبين . . إلخ . . إلخ . . كلها أمور مسكوت عنها فى مؤتمرات الحوار الدينى . .

بل إن وثائق مؤتمرات التدبير لتنصير المسلمين ، التى تتسابق فى ميادينها كل الكنائس الغربية ، تعترف - هذه الوثائق - **بأن الحوار الدينى - بالنسبة لهم - لا يعنى التخلى عن « الجهود القسرية والواعية والمتعمدة والتكتيكية لجذب الناس من مجتمع دينى ما إلى آخر » بل ربما كان الحوار مرحلة من مراحل التنصير !**(*)

وإذا كانت النصرانية الغربية تتوزعها كنيستان كبريان ، الكاثوليكية . . والبروتستانتية الإنجيلية . . فإن فاتيكان الكاثوليكية - الذى أقام مؤسسات للحوار مع المسلمين ، ودعا إلى كثير من مؤتمرات هذا الحوار - هو الذى رفع شعار : « إفريقيا نصرانية سنة ٢٠٠٠ م » . . فلما أزف الموعد ، ولم يتحقق الوعد ، مد أجل هذا « الطمع » إلى ٢٠٢٥ م ؟!

وهو الذى عقد مع الكيان الصهيونى ، المغتصب للقدس وفلسطين ، معاهدة فى ٣٠ - ١٢ - ١٩٩٣ م تحدثت عن العلاقة الفريدة بين الكاثوليكية وبين الشعب اليهودى ، واعترفت بالأمر

(*) وثائق مؤتمر كولورادو لتنصير المسلمين (التنصير : خطة لغزو العالم الإسلامى) ص ٧٧ الطبعة العربية - مالطا - مركز دراسات العالم الإسلامى .

الواقع للاغتصاب ، وأخذت كنائسها فى القدس المحتلة تسجل نفسها وفقًا للقانون الإسرائيلى الذى ضم المدينة إلى إسرائيل سنة ١٩٦٧ م !!

بل لقد ألزمت هذه المعاهدة كل الكنائس الكاثوليكية بما جاء فيها . . أى أنها دعت وتدعو كل الملتزمين بسلطة الفاتيكان الدينية - حتى ولو كانوا مواطنين فى وطن العروبة وعالم الإسلام - إلى خيانة قضاياهم الوطنية والقومية !

وباسم هذه الكاثوليكية أعلن بابا الفاتيكان أن القدس هى الوطن الروحى لليهودية ، وشعار الدولة اليهودية . . بل وطلب الغفران من اليهود . . وذلك بعد أن ظلت كنيسته قرونًا متطاولة تبيع صكوك الغفران !

أما الكنيسة البروتستانتية الإنجيلية الغربية ، فإنها هى التى فكرت ودبرت وقررت ، فى وثائق مؤتمر كولورادو سنة ١٩٧٨ م :

« إن الإسلام هو الدين الوحيد الذى تناقض مصادره الأصلية أسس النصرانية .. وإن النظام الإسلامى هو أكثر النظم الدينية المتناسقة اجتماعياً وسياسياً .. إنه حركة دينية معادية للنصرانية ، مخططة تخطيطاً يفوق قدرة البشر . ونحن بحاجة إلى مئات المراكز ، تؤسس حول العالم ، بواسطة النصارى ، للتركيز على الإسلام ، ليس فقط لخلق فهم أفضل للإسلام ، وللتعامل النصرانى مع الإسلام ، وإنما لتوصيل ذلك الفهم إلى المنصِّرين من أجل اختراق الإسلام فى صدق ودهاء » !!

ولقد سلك هذا المخطط - فى سبيل تحقيق الاختراق للإسلام ، وتنصير المسلمين - كل السبل اللا أخلاقية - التى لا تليق بأهل أى دين من الأديان - فتحدثت مقررات هذا المؤتمر عن العمل على اجتذاب الكنائس الشرقية الوطنية إلى خيانة شعوبها ، والضلوع فى مخطط اختراق الإسلام والثقافة الإسلامية للشعوب التى هى جزء وطنى أصيل فيها . . فقالت وثائق هذه المقررات :

« لقد وطّدنا العزم على العمل بالاعتماد المتبادل مع كل النصارى والكنائس الموجودة فى العالم الإسلامى .. إن النصارى البروتستانت ، فى الشرق الأوسط وإفريقيا وآسيا ، منهمكون بصورة عميقة ومؤثرة فى عملية تنصير المسلمين .

ويجب أن تخرج الكنائس القومية من عزلتها ، وتقتحم بعزم جديد ثقافات ومجتمعات المسلمين الذين تسعى إلى تنصيرهم ، وعلى المواطنين النصارى فى البلدان الإسلامية وإرساليات التنصير الأجنبية العمل معاً ، بروح تامة ، من أجل الاعتماد المتبادل والتعاون المشترك لتنصير المسلمين » !

فهم يريدون تحويل الأقليات الدينية فى بلادنا إلى شركاء فى هذا النشاط التنصيرى ، المعادى لشعوبهم وأمتهم !

كذلك قررت « بروتوكولات » هذا المؤتمر تدريب وتوظيف العمالة المدنية الأجنبية ، التى تعمل فى البلاد الإسلامية ، لمحاربة الإسلام وتنصير المسلمين . . وفى ذلك قالوا :

« إنه على الرغم من وجود منصرين بروتستانت ، من أمريكا الشمالية ، فى الخارج أكثر من أى وقت مضى ، فإن عدد الأمريكيين الفنيين الذين يعيشون فيما وراء البحار يفوق عدد المنصرين بأكثر من ١٠٠ إلى ١ .. وهؤلاء يمكنهم أيضاً أن يعملوا مع المنصرين جنباً إلى جنب لتنصير العالم الإسلامى .. وخاصة فى البلاد التى تمنع حكوماتها التنصير العلنى » !

كذلك ، دعت قرارات مؤتمر كولورادو إلى التركيز على أبناء المسلمين الذين يدرسون أو يعملون فى البلاد الغربية ، مستغلين عزلتهم عن المناخ الإسلامى ، لتحويلهم إلى « مزارع ومشاتل للنصرانية » ، وذلك لإعادة غرسهم وغرس النصرانية فى بلادهم عندما يعودون إليها . . وعن ذلك قالوا :

« يتزايد باطراد عدد المسلمين الذين يسافرون إلى الغرب . ولأنهم يفتقرون إلى الدعم التقليدى الذى توفره المجتمعات الإسلامية ، ويعيشون نمطاً من الحياة مختلفاً - فى ظل الثقافة العلمانية والمادية - فإن عقيدة الغالبية العظمى منهم تتعرض للتأثر .

وإذا كانت « تربة » المسلمين فى بلادهم هى ، بالنسبة للتنصير « أرض صلبة .. ووعرة » .. فإن بالإمكان إيجاد « مزارع » خصبة بين المسلمين المشتتين خارج بلادهم ، حيث يتم الزرع والسقى والتهيئة لعمل فعال عندما يعاد زرعهم ثانية فى تربة أوطانهم كمنصرين » !

بل إن بروتوكولات هذا المؤتمر التنصيرى لتبلغ قمة اللاأخلاقية ،

عندما تقرر أن صناعة الكوارث فى العالم الإسلامى هى السبيل لإفقاد المسلمين توازنهم ، الذى يسهل عملية تحولهم عن الإسلام إلى النصرانية ! . . فتقول هذه البروتوكولات :

« لكى يكون هناك تحول إلى النصرانية ، فلابد من وجود أزمات ومشاكل وعوامل تدفع الناس ، أفراداً وجماعات ، خارج حالة التوازن التى اعتادوها ..

وقد تأتى هذه الأمور على شكل عوامل طبيعية ، كالفقر والمرض والكوارث والحروب ، وقد تكون معنوية ، كالتفرقة العنصرية ، أو الوضع الاجتماعى المتدنى ..

وفى غياب مثل هذه الأوضاع المهيئة ، فلن تكون هناك تحولات كبيرة إلى النصرانية .. إن تقديم العون لذوى الحاجة قد أصبح عملاً مهماً فى عملية التنصير !

وإن إحدى معجزات عصرنا ، أن احتياجات كثير من المجتمعات الإسلامية قد بدّلت موقف حكوماتها التى كانت تناهض العمل التنصيرى ، فأصبحت أكثر تقبلاً للنصارى » !!(*)

فهم - رغم مسوح رجال الدين - يسعون إلى صنع الكوارث فى بلادنا ، ليختل توازن المسلمين ، وذلك حتى يبيعوا إسلامهم لقاء مأوى أو كسرة خبز أو جرعة دواء ! . . وفيما حدث ويحدث

(*) المصدر السابق . انظر ذلك كله - وأضعافه - فى كتابنا الذى خصصناه لدراسة وثائق مؤتمر كولورادو ، وعنوان طبعته الأخيرة : (الغارة الجديدة على الإسلام) بروتوكولات قساوسة التنصير - طبعة دار الرشاد - القاهرة سنة ١٩٩٨ م .

لضحايا المجاعات والحروب الأهلية والتطهير العرقى - فى البلاد الإسلامية - التطبيق العملى لهذا الذى قررته البروتوكولات . . فهل يمكن أن يكون هناك حوار حقيقى ومثمر مع هؤلاء ؟!

* * *

تلك بعض من الأسباب التى جعلتنى متحفظًا على دعوات ومؤتمرات وندوات الحوار بين الإسلام والنصرانية الغربية . . وهى أسباب دعمتها وأكدتها « تجارب حوارية » مارستها فى لقاء تم فى « قبرص » أواخر سبعينيات القرن العشرين . . ووجدت ، يومها ، أن الكنيسة الأمريكية - التى ترعى هذا الحوار وتنفق عليه - قد اتخذت من إحدى القلاع التى بناها الصليبيون إبان حروبهم ضد المسلمين ، « قاعدة » ومقرًا لإدارة هذا الحوار ؟!

ومؤتمر آخر للحوار ، حضرته فى عمّان - بإطار المجمع الملكى لبحوث الحضارة الإسلامية - مع الكنيسة الكاثوليكية - فى الثمانينيات - وفيه حاولنا - عبثًا - انتزاع كلمة منهم تناصر قضايانا العادلة فى القدس وفلسطين . . فذهبت جهودنا أدراج الرياح ! . . على حين كانوا يدعوننا إلى « علمنة » العالم الإسلامى ، لطى صفحة الإسلام كمنهاج للحياة الدنيا ، تمهيدًا لطى صفحته - بالتنصير - كمنهاج للحياة الآخرة !

ومنذ ذلك التاريخ عزمت على الإعراض عن حضور « مسارح » هذا « الحوار » !

لكننى عندما دعيت من « المجمع الملكى لبحوث الحضارة الإسلامية » - والذى أشرفُ بعضويته - إلى لقاء « إسلامى - مسيحى » ، مع اتحاد الكنائس الإنجيلية فى ألمانيا (٢٩ ذى القعدة - ٢ ذى الحجة ١٤١٧ هـ الموافق ٧ - ٩ أبريل ١٩٩٧ م) بعمّان ، لم أتردد فى تلبية الدعوة ، لا لأنى قد غيرت رأيى فى مثل هذه اللقاءات ، وإنما لطبيعة الموضوع الذى كان محور هذا اللقاء .

فلقد كان الموضوع عن « الدين والعلمانية » . . فأحببت أن أسمع رأى الكنيسة الغربية فى تجربتها مع العلمانية التى صارعت المسيحية الغربية حتى صرعتها - وهى العلمانية التى صدّرتها لنا أوروبا ، لتصنع مع إسلامنا ما صنعته مع النصرانية الغربية - . .

وزاد من حماسى لحضور هذا اللقاء ، تكليفى بالتعقيب على بحث من بحوث هذا اللقاء عن «**عملية العلمنة والمسيحية الغربية**» ، كتبه الدكتور « جوتفرايد كونزلن » - وهو أستاذ فى اللاهوت الإنجيلى والأخلاقيات الاجتماعية بجامعة القوات المسلحة (فى ميونخ) بألمانيا - . . أى أنه قسيس وعالم اجتماع فى ذات الوقت . .

وهو بحث فيه من نبرات الصدق ما يجعله شهادة إدانة للعلمانية الغربية ، ولما فعلته بالنصرانية ، وبالإنسان الغربى . . ومن ثم إدانة للغرب وكنائسه وعملائه من المتغربين العلمانيين فى بلادنا الذين يعملون على أن تصنع هذه العلمانية بإسلامنا وإنساننا المسلم هذا الذى صنعته العلمانية بالنصرانية الغربية ،

والإنسان الغربى . .

لقد وجدت فى حضور هذا اللقاء فرصة استثنائية للحوار مع قس وعالم اجتماع ، حول قضية مشتركة ، هى هزيمة العلمانية للدين ، ثم عجزها عن القيام بالدور الذى يجب أن يقوم به الدين فى حياة الإنسان . .

وكما سعدت ببحث الدكتور « كونزلن » . . وأثنيت على صدقه مع نفسه - وإن كان قد وقف عند نقد الذى حدث . . ولم يقدم ، صراحة ، مخرجًا من المأزق الذى سقطت فيه أوروبا العلمانية - فلقد سعد الرجل بنقدى لهذا الذى حدث ويحدث بأوروبا وكنائسها حول هذا الموضوع . . رغم ما لامسه نقدى من نقاط حساسة ، يقابلها الكثيرون عادة - ولقد قابلوها - بتوتر قارب الاحتقان !

* * *

ولأن هذا الذى كتبه الدكتور « كونزلن » هو شهادة شاهد من أهلها . . ولأن تعليقى على شهادته هذه ، هو موقف لا علاقة له بالمداهنة والنفاق اللذين تطفح بهما أغلب منتديات الحوار الدينى . . فلقد آثرت أن أقدم جميع ذلك إلى الباحثين والقراء . .

لقد قال الدكتور « كونزلن » - فى بحثه هذا عن العلمنة ، وعن صنيعها بالنصرانية . . وعن الثمرات المرة التى تعانى منها أوروبا اليوم :

● « لقد مثلت العلمنة : تراجع السلطة المسيحية .. وضياع أهميتها الدينية .. وتحول معتقدات المسيحية إلى مفاهيم دنيوية . والفصل النهائى بين المعتقدات الدينية والحقوق المدنية .. وسيادة مبدأ : دين بلا سياسة ، وسياسة بلا دين ..

● ولقد نبعت العلمانية من التنوير الغربى .. وجاءت ثمرة لصراع العقل مع الدين ، وانتصاره عليه ، باعتباره مجرد أثر لحقبة من حقب التاريخ البشرى ، يتلاشى باطراد فى مسار التطور الإنسانى ..

● ومن نتائج العلمانية : فقدان المسيحية لأهميتها فقداناً كاملاً .. وزوال أهمية الدين كسلطة عامة لإضفاء الشرعية على القانون والنظام والسياسة والتربية والتعليم .. بل وزوال أهميته أيضاً كقوة موجهة فيما يتعلق بأسلوب الحياة الخاص للسواد الأعظم من الناس ، وللحياة بشكل عام .. فسلطة الدولة ، وليست الحقيقة ، هى التى تصنع القانون .. وهى التى تمنح الحرية الدينية ..

● ولقد قدّمت العلمانية الحداثة باعتبارها ديناً حل محل الدين المسيحى ، يفهم الوجود بقوى دنيوية ، هى العقل والعلم ..

● لكن .. وبعد تلاشى المسيحية .. سرعان ما عجزت العلمانية عن الإجابة على أسئلة الإنسان ، التى كان الدين يقدم لها الإجابات .. فالقناعات العقلية أصبحت مفتقرة إلى اليقين .. وغدت الحداثة العلمانية غير واثقة من نفسها ، بل وتُفكِّك أنساقها - العقلية والعلمية - عدميةُ ما بعد الحداثة .. فدخلت الثقافة العلمانية فى أزمة ، بعد أن

أدخلت الدين المسيحى فى أزمة .. فالإنهاك الذى أصاب المسيحية أعقبه إعياء أصاب كل العصر العلمانى الحديث .. وتحققت نبوءة نيتشة (١٨٤٤ - ١٩٠٠ م) عن « إفراز التطور الثقافى الغربى لأناس يفقدون (نجمهم) الذى فوقهم، ويحيون حياة تافهة، ذات بُعد واحد، لا يعرف الواحد منهم شيئاً خارج نطاقه » .. وبعبارة « ماكس فيبر » (١٨٦٤ - ١٩٢٠ م) : « لقد أصبح هناك أخصائيون لا روح لهم، وعلماء لا قلوب لهم » !

● « ولأن الاهتمام الإنسانى بالدين لم يتلاشى، بل تزايد .. وفى ظل انحسار المسيحية، انفتح باب أوروبا لضروب من الروحانيات وخليط من العقائد الدينية لا علاقة لها بالمسيحية ولا بالكنيسة - من التنجيم .. إلى عبادة القوى الخفية .. والخارقة .. والاعتقاد بالأشباح .. وطقوس الهنود الحمر .. وروحانيات الديانات الآسيوية .. والإسلام، الذى أخذ يحقق نجاحاً متزايداً فى المجتمعات الغربية ..

لقد أزالت العلمانية السيادة الثقافية للمسيحية عن أوربا .. ثم عجزت عن تحقيق سيادة دينها العلمانى على الإنسان الأوربى، عندما أصبح معبدها العلمى عتيقاً .. » ! .. ففقد الناس « النجم » الذى كانوا به يهتدون : وعد الخلاص المسيحى .. ثم وعد الخلاص العلمانى !

* * *

تلك بعض من عبارات الدكتور « كونزلن » ، التى قدمها فى بحثه عن « عملية العلمنة والمسيحية الغربية » . .

ولو أن الكنائس الغربية لم تخن نصرانيتها ، لركزت جهودها ضد العلمانية فى بلادها ، وعملت على إعادة تنصير أوربا ، بدلاً من هذه الحرب التى تشنها لتنصير المسلمين . .

ولو أن هذه الكنائس أخلصت لمنظومة التدين - مطلق التدين - وللقيم الإيمانية - مطلق القيم الإيمانية - لسعدت بصمود الإسلام فى وجه العلمانية ، ونجاة المسلمين من هذا الذى أحدثته العلمانية بالإنسان الغربى والمجتمعات الغربية . . لكن الغريب والعجيب ، أن هذه الكنائس لم تصنع شيئًا من ذلك ، وإنما صنعت العكس ، فزاد سعار حقدها على الإسلام لأنه قاوم ولا يزال يقاوم العلمانية ، محافظًا على سلطان الدين والتدين فى قلوب المسلمين . . فكأن هذه الكنائس تريد أن تزرع فى الجسم الإسلامى ذات الجراثيم القاتلة التى قتلت تدين المجتمعات الغربية !

بل إن هذا الصمود الإسلامى - وفى ذلك مدعاة للغرابة والاستغراب - هو الذى جعل دوائر القرار الاستراتيچى فى الغرب ، تعلن - بعد انهيار المنظومة الشيوعية - أن الإسلام هو العدو الذى حل محل إمبراطورية الشر الشيوعية . . لأنه - من بين كل الثقافات غير الغربية - المستعصى على العلمنة ، والذى يستيقظ ليقدم لأمته مشروعًا للنهضة ملتزمًا بمعايير الدين وقيم الإيمان . .

وعن هذه الحقيقة ، تحدثت مجلة « شئون دولية » International Affairs فقالت :

« لقد شعر الكثيرون بالحاجة إلى اكتشاف تهديد يحل محل التهديد السوفيتى .. وبالنسبة لهذا الغرض كان الإسلام جاهزاً فى المتناول .. فالإسلام رافض لأى تمييز بين ما لله وما لقيصر .. وهو لا يسمح لمعتنقيه أن يصبحوا مواطنين فى دولة علمانية .. إنه استثناء مدهش وتام جداً من النظرية التى يعتنقها علماء الاجتماع ، والتى تقول إن المجتمع الصناعى والعلمى الحديث يُحل العلمنة محل الإيمان الدينى .. فلم تتم أى علمنة فى عالم الإسلام ، وسيطرة هذا الدين على المؤمنين به هى سيطرة قوية ، بل إنها أقوى الآن مما كانت عليه من مائة سنة مضت .. إنه مقاوم للعلمنة ، فى ظل مختلف النظم السياسية - راديكالية .. وتقليدية .. وبين بين - .. وعمليات الإصلاح الذاتى تتم ، فى العالم الإسلامى ، باسم الإيمان الدينى ، وليس على أنقاض هذا الإيمان .. ولأن الإسلام هو الثقافة الوحيدة القادرة على توجيه تحدى فعلى وحقيقى للثقافة العلمانية الغربية ، كان - من بين الثقافات الموجودة فى الجنوب - الهدف المباشر للحملة الغربية الجديدة » !

فرفض الإسلام والمسلمين للعلمنة - ومن ثم التبعية للنموذج الغربى - هو السبب الجوهرى لإعلان الغرب أن العدو الجديد - الذى حل محل الشيوعية - هو الإسلام . .

وهو السبب الذى جعل الحوارات الدينية - مع الكنائس الغربية - حوارات طرشان ! . . لأن هذه الكنائس ، بدلاً من أن تتعلم من الإسلام كيفية الصمود ضد العلمانية ، نراها تستهدف - حتى من وراء حواراتها الدينية - ليس فقط علمنة المسلمين -

كما تريد الدوائر العلمانية الغربية - وإنما طى صفحة الإسلام من الوجود !

* * *

لذلك كله ، تتزايد أهمية هذه الشهادة الغربية ، التى كتبها عالم الاجتماع الألمانى ، وأستاذ اللاهوت الإنجيلى ، الدكتور «كونزلن» . .

وهى الشهادة التى نخلى بين القراء وبينها فيما يلى من الصفحات . . ثم نتبعها بالتعقيب الذى قدمناه حولها فى مؤتمر الحوار .

سائلين الله ، سبحانه وتعالى ، أن ينفع بهذا الجهد . . وأن يتقبله خالصًا لوجهه الكريم ، ولنصرة دينه القيّم . . إنه أعظم مسئول ، وأكرم مجيب . .

دكتور

محمد عمارة

عملية العلمنة والمسيحية الغربية

للأستاذ الدكتور جوتفرايد كونزلن(*)

أولاً : مقدمة

إذا نظر المرء إلى وضع المسيحية الغربية ومصيرها فلابد أن يتطرق إلى التفكير في موضوع العلمنة . و«**العلمنة**» **مفهوم غامض** ، ويمكننا أن نخصّ بالذكر أربعة تفسيرات مختلفة من زاوية النظرية الثقافية والدينية واللاهوتية وهي :

١ - يمكن فهم **العلمنة** على أنها عملية **تراجع السلطة المسيحية** ولا سيما بشكلها المأسس المتعلق بالطوائف المسيحية . وطبقًا لهذا التفسير ، تمثّل العلمنة خطة لفهم **ضياع أهمية المسيحية الدينية الأصلية واضمحلال نفوذ الكنيسة** .

٢ - يمكن فهم العلمنة بأنها **عملية تحوّل ما هو في الأصل معتقدات مسيحية إلى مفاهيم دنيوية** عن البشر والعالم . وقد وصف كارل لوويث (Karl Lowith) بصفة خاصة هذه العملية في كتابه الهام (Weltgeschichte and Heilsgeschechen) (١٩٥٣ م) . وبناء على ذلك يمكن تناول فلسفة التاريخ الماركسية الطوباوية[1] على أنها الصيغة المعلمنة لعلم أو دراسة الأخرويات .

(*) أستاذ في اللاهوت الإنجيلي والأخلاقيات الاجتماعية - جامعة القوات المسلحة لجمهورية ألمانيا - ميونخ - ألمانيا .

(١) الطوباوية : الخيالية ، التي لا تعبر عن الواقع .

٣ – أما من منظور لاهوتى، ولا سيما بروتستانتى، فإن بالإمكان فهم العلمنة على أنها نتيجة مشروعة وضرورية من نتائج العقيدة المسيحية . ويستند هذا التفسير بصورة رئيسية على ما نشره اللاهوتى الألمانى فردريتش غوغارتن Freidrich Gogarten . ففى كتابه : Verhangnis und Hoffnung der Neuzeit (١٩٥٣ م) يصف **العلمنة بأنها نتيجة اتجاهات تمثل جزءًا جوهريًا من العقيدة المسيحية**، أى أنها زوال الوهم عن العالم، وكذلك ضعف الدول الكبرى التى كانت تحكم العالم فيما مضى . وعند هذه النقطة، لابدّ لنا من أن نضيف أنّ **غوغارتن يميّز بين علمانية مشروعة دينيًا لأنها مبنيّة على تصوّر مسيحى للحرية**، من ناحية، **وعلمانية غير مشروعة دينيًا من ناحية أخرى** . والعلمانية هى تعلّق العصر الحديث بالقوى الجديدة ذات العلاقة بالعالم الداخلى (العقائديات وتعاليم الخلاص العلمانية) .

٤ – وبما يسترعى النظر بالنسبة لنظرية العلمنة المتصلة بعلم الاجتماع، أنها كثيرًا ما ترتبط بأفكار أساسية تنبع من التنوير الأوروبى . لأن علم الاجتماع الغربى نفسه هو فى جزء منه أحد موروثات عصر التنوير . ويرتبط هذا التفسير السوسيولوچى للعلمنة، بتصور العصر الحديث على أنه عملية منطق يتصف بالانفتاح وبالتحرر من جميع الروابط والجذور . وبالنسبة لهذا النمط من التفكير المرتبط بتراث عصر التنوير كان واضحًا تمامًا أن

الدين التاريخى بشتى أنواعه كان من أهم العوائق أمام العقل والمنطق ، فحال بين الإنسان وبين التعبير عن ذاته ، وبالتالى بينه وبين السعادة . **ورحلة العصر الحديث وفقاً لهذا الرأى هى رحلة العقل الذى يصارع الدين وينتصر عليه فى نهاية المطاف وبالتالى يعثر على ذاته ويوطد أركانه . ومعنى ذلك أن الدين ينتمى إلى مجرد حقبة من حقب التاريخ البشرى ثم يتلاشى باطراد فى مسار التطور الإنسانى .**

وضمن إطار هذه المحاضرة الموجزة ، لا أستطيع الإسهاب فى التفسيرات النظرية للعلمنة ، بل أنوى فى الصفحات القليلة التالية **أن أبيّن لكم بعض المسارات الرئيسية التى كانت أساسية فى تكوين العنصر الحديث العلمانى وتاريخه ، وبعدئذ سأتطرق إلى الوضع المعاصر للمسيحية الغربية .**

ثانياً : « خصخصة » الدين وعملية الاستنارة الدينية السياسية

من نتائج عملية العلمنة التى تحظى باعتراف جماعى يمكن أن نذكر **فقدان الدين المسيحى لأهميته فقداناً كاملاً** ، وهو الدين الذى سبق أن سيطر على الثقافة الغربية ، وبصفة خاصة **زوال أهمية الدين كسلطة عامة لإضفاء الشرعية** . وينطبق هذا بشكل خاص **على القانون والنظام والسياسة والتربية والتعليم** .

ومن وجهة نظر سوسيولوچية ضيقة ، يمكن ملاحظة هذه العملية فى **الفعالية الاجتماعية المتراجعة للدين القائم على التنظيم الكهنوتى كوسيلة للرقابة الاجتماعية** . فالعلمنة إذن عملية مفاضلة بنيوية فى المجتمعات الحديثة . ويؤدى ذلك إلى **دينٍ متزايد الخصوصية، فقد دوره كسلطة لإضفاء الشرعية** والتكامل بالنسبة للمجتمع بأسره .

بيد أن هذه ليست بالظاهرة الوحيدة المتعلقة بالبنية الاجتماعية ، بل **إن الدين فقد أهميته فيما يتعلق بأسلوب الحياة الخاص بالأفراد** . كما أن العلمنة هى علمنة للوعى أيضًا . وبناء على ذلك فإن الأهمية الثقافية للعلمنة تكمن أيضًا فى الحقيقة القائلة : **إن الدين كأسلوب شخصى للحياة قد تغيّر** ، فقد تقلص إلى مكانة هو فيها منبع للإحساس ، أو أنه **فقد حتى دوره كقوة موجهة** (على حد قول ماكس فيبر[1]) **للحياة بشكل عام** .

(١) ماكس فيبر (١٨٦٤ - ١٩٢٠) عالم اجتماع ألمانى ، معارض للماركسية ، وقائل بتعدد العوامل المؤثرة فى المجتمع ، وليس الاقتصاد وحده . ولقد صاغ ذلك فى كتابه (الخلق البروتستانتى وروح الرأسمالية) .

وقصارى القول يمكن الاستشهاد بعبارة بيتر إل . بيرغر (Berger) وهي : « نشأ وضع جديد تمامًا بالنسبة للإنسان الحديث ، ولعله **لأول مرة في التاريخ نجد أن الإباحات الدينية في العالم قد فقدت معقوليتها الظاهرية ، ليس بالنسبة إلى قليل من المفكرين والجماعات الاجتماعية المتطرفة الأخرى فحسب ، بل أيضاً بالنسبة إلى السواد الأعظم من المجتمع »** .

ويمكن رؤية هذه العملية من التراجع العام للدين و«خصخصته»[1] وذلك بصورة نموذجية في دراسة للعلاقات المتغيرة بين الدين والسياسة أثناء حقبة العصر الحديث المُعلمَن ونموّ الدولة العلمانية .

ويمكن وصف هذه العملية وفقًا لما يقوله الفيلسوف الألماني هيرمان ليبه (Hermann Lubbe) بأنها **تنوير ديني** .

ومن النتائج البارزة لعملية التنوير الدينية السياسية هذه ، **الفصل النهائي بين المعتقدات الدينية والحقوق المدنية** . ومن الملامح الجوهرية في تطوّر الدولة العلمانية ، **أنّ العضوية المدنيّة ليست مرتبطة بالتزام تجاه مذهب ديني بعينه** .

وكان من الخطوات الهامة في تطور هذا الاتجاه تفسّخ الدولة المسيحية المتجانسة التي كانت مقدسة في الماضي ، وبدأ هذا التفكك يأخذ مجراه في العصور الوسطى في أوروبا . وكانت الدولة المسيحية ذات مرة النظام الوحيد والمقدس ، ولم تتأثر

(١) أي جعله علاقة خاصة بين الفرد والله ، لا أثر لتعاليمه في المجتمع والعمران .

بالفصل بين المجالين الدينى والعلمانى أو بين الكنيسة والدولة .

وتمثّل تجربة الحروب الأهلية ذات الدوافع المذهبية فى أوروبا فى القرنين السادس عشر والسابع عشر حالة أساسية أخرى فى بناء العلاقة بين الدين والسياسة فى العصور الحديثة . وقد أدى الانشقاق الدينى نتيجة للإصلاح الدينى[1] إلى ضرورة العيش الموحّد فى ظل نظام سياسى مشترك بالرغم من اختلاف المذاهب الدينية . وتمخض عن ذلك **إعطاء الأولوية للسياسة بتقديمها على الدين** . وكانت هذه الأفضلية للسياسة على مطالب الفئات الدينية هى وحدها التى **جعلت تكوين نظام سياسى سلمى للأمم أمرًا ممكناً** . وبهذه الطريقة تطور تصور **للسلام لم يعد قائماً على الحقائق الدينية بل على الهدوء والأمن اللذين تكفلهما الحكومة، متجاوزة بذلك الاختلافات المذهبية التى أصبحت الآن أمورًا دينية أو كنسية داخلية، وقضايا تخص أسلوب حياة المؤمنين الشخصية الخاصة.**

دين بلا سياسة وسياسة بلا دين: هذه هى المعادلة الجديدة للعلاقة بين الدين والسياسة التى تكوّن منها العصر الحديث.

وقد صاغ توماس هوبز[2] (Thomas Hobbes) هذه النتيجة ذات مرة بأسلوب عملى واقعى إذ قال : **إن السلطة وليس**

---

(١) الذى قاده مارتن لوثر (١٤٨٣ - ١٥٤٦ م) وهو ألمانى ، أدت ثورته على كهانة الكنيسة الكاثوليكية إلى تأسيس وانتشار البروتستانتية وقيام كنيستها .

(٢) توماس هوبز (١٥٨٨ - ١٦٧٩ م) فيلسوف إنجليزى ، كان من أنصار الحكم الملكى المطلق ، الذى رأى فيه ثمرة للتعاقد الذى أبرمته الجماعة السياسية ، ونزلت بموجبه عن حقوقها للحاكم الذى اختارته ليخرجها من فوضى الصراع .

الحقيقة هى التى تصنع القانون . ونتيجة لهذا التطور الذى شهدته الدولة العلمانية **تلت ذلك خطوة تمثلت فى الدولة الغربية الدستورية بوصفها السلطة المانحة للحرية الدينية** . وكما يقول بوكنفورد (Bockenforde) الخبير الألمانى فى القانون الدستورى : « إن الحرية الدينية لا تشمل السماح باتباع أى دين بصورة خاصة أو عامة فحسب ، بل تنطوى أيضًا على **السماح للمرء بأن لا ينتمى لأى دين على الإطلاق** دون الإخلال بالنظام الاجتماعى . وهنا يكتمل الطابع العلمانى والاستقلال الدينى للدولة بصورة رئيسية » .

ثالثاً : تاريخ الدين العلمانى وأزمته

غير أن تراجع الأهمية الجماهيرية للدين ، لا سيما فى صُوَره المَأسَسة ، لا يبيّن سوى مظهر واحد فقط من التطور الحديث . وإذا درسنا العملية الفعلية لتكوين تاريخ العصر الحديث فى مختلف خطواته وتفرعاته ، وإذا بحثنا عن الأفكار الأساسية ، وعن أفكار العالم ، وردود الفعل الصادرة عنها ، نرى أن **فقدان الأهمية الاجتماعية للدين التاريخى لم تؤدّ إلى اختفاء الأسئلة التى كان الدين ملزماً بالإجابة عنها لكل إنسان** ، بل ويمكن الذهاب إلى أبعد من ذلك والقول إنه يقتضى **الإجابة عن هذه الأسئلة الآن (دون مرجعية تتجاوز معرفة الإنسان وعقله) من منطلق العالم الخاص بالفرد** . وللتاريخ الفعلى الخاص بالعصر الحديث تاريخه العلمانى الذى وضعه هو للدين . **إنه تاريخ الوعد العلمانى بالخلاص وبالأمل بالفداء فى هذه الدنيا** . « إن وضعنا الحالى ليس مجرد نتيجة لعملية علمنة صاغت نظامًا علمانيًا . فقد تخلّى المجتمع العلمانى عن الأسلوب القديم فى الاعتراف بالدين ، لكنه لم يتخلّ عن الدين كله . وحدث التكوين والنصر فى روح عقيدة جديدة . ولهذا السبب حصل المجتمع العلمانى على تاريخ العقيدة الخاص به » تنبروك (Tenbruck) .

وهذا الرأى حول البعد الدينى العلمانى لعملية التحديث مختلف عن الآراء الأخرى فى العلمنة . ويختلف بصورة خاصة عن مفهوم العصر الحديث بوصفه عملية عقل ومنطق يتصف

بالانفتاح ، ومتحرر من جميع الروابط والجذور على اختلافها ، ومرتبط بتراث عصر التنوير ، كما سبق أن أشرت فى القسم الأول من بحثى هذا . وضمن إطار فهمنا للتاريخ الحديث للدين ، فإن أسلوب التفكير هذا نفسه علامة على أمل علمانى . وبوصفه أحد الدوافع ، فقد حدد معالم التاريخ العلمانى للدين فى العصر الحديث ، كما أنه كثيرًا ما وصف بأنه « عقل ودين » أو « إيمان بالتقدم » لذلك السبب .

وحسب هذا الرأى ، فإن العلمنة ليست فقط وصفاً لاضمحلال الأهمية الثقافية للدين التاريخى وصوره المؤسسة ، بل تعنى أيضاً خلق وسائل جديدة لعمليات فهم للوجود وقوى الإيمان ذات توجُّهٍ دنيوى . وتتمثل قوى الإيمان العلمانية الدينية حسب رأيى فى الثالوث التالى :

* **التاريخ كتاريخ علمانى للخلاص** (ويمكن القول أيضًا : التاريخ كنقطة جذب ومصير) .

* **مسيحانية** (إيمان بمجىء المسيح المنتظر) سياسية (أو دين الثورة) .

* **العلم كقوة علمانية للإيمان .**

لقد قدمت هذه الملاحظات والإلماحات الموجزة عن التاريخ العلمانى للدين كتيار رئيسى فى نشوء العصر الغربى الحديث وتاريخه ، ليس فقط بدافع من الاهتمام التاريخى ، بل أكثر من

ذلك أن أحد السمات لوضع الثقافة الحالى فى المجتمع الغربى **أن التاريخ العلمانى للدين الذى أدى انتصاره إلى تطور العصر الحديث هو الآن فى أزمة حقيقية، فقد أصبحت القناعات العقلية الأساسية أموراً تفتقر إلى اليقين، وغدت الحداثة العلمانية غير واثقة من نفسها.** ويمكن رؤية ذلك بالتفصيل إذا نظرنا إلى الأثر الثقافى الراهن **لزوال أهمية الإيمان العلمانى بالتقدم، وتداعى بنيان المسيحانية (الإيمان بالمسيح المنتظر) السياسية**، حيث لا يمثل انهيار الماركسية سوى مثال واحد بارز فقط على ذلك، والتأثير الثقافى **لزوال أهمية العلم كقوة علمانية من قوى الإيمان.**

لقد أصبح معبد العلم عتيقاً، وهكذا فقدت الآمال العلمانية بالفداء والخلاص قوتها الثقافية. ولا يقتصر معنى ذلك على حدوث أزمة فى التراث الدينى للعالم الغربى، أى المسيحية، بل أيضاً حدوث أزمة فى الثقافة العلمانية للحداثة، ولم ينحصر الأمر فى إصابة المسيحية بالإنهاك، بل أصيب العصر الحديث بالإعياء أيضاً. فقد ملّ آماله العلمانية الخاصة به والمتعلقة بالإيمان، وشاخت الآلهة الجديدة أو «القوى اللا شخصية» (م. فيبر)، ولم يبق سوى القيد المفروض على هذا العالم، أما الدوافع والغايات والآمال الماضية فقد باتت فى غياهب النسيان. **ويبدو تقريباً أن رؤية نيتشه[1] (Nietzsche) الناقدة لثقافة «آخر بنى البشر» والخاصة بالتطور**

---

(١) نيتشه، فردرك فلهلم (١٨٤٤ - ١٩٠٠ م) فيلسوف ألمانى، هاجم الأخلاق المسيحية، لأنها تعادى المتازين لحساب الضعفاء، وبشر بأخلاق السادة والإنسان «السوبر مان»، وفلسفة القوة.

الثقافى الأوروبى، أصبحت حقيقة ثقافية . فقد قال نيتشه قبل أكثر من مائة سنة مايلى عن مستقبل أوروبا:

سيفرز التطور الثقافى الغربى نوعاً من الناس تكون حياة الواحد منهم تافهة وذات بعد واحد، وسيعيشون حياتهم دون أن يعرف الواحد منهم شيئاً خارج نطاقه، وعلى حد قول نيتشه سيفقدون «نجمهم» الذى فوقهم.

وقد أصبح هناك نوع واحد فقط من التجربة لا يعرف الآمال المتسامية، القوة الموجهة الأولى.

وقبل أكثر من ثمانين سنة وصف ماكس فيبر الوضع العقلى والفكرى فى حينه بهذه العبارة: «إن المصالح المادية فى هذا العالم تكتسب قدراً متزايداً من التسلّط على البشر، وفى النهاية تصبح حتمية». ومنذئذ استمرت هذه العملية من التقيد بهذا العالم باطراد.

ونتيجة لذلك أصبحت الأسئلة عما يسمى «الأشياء الأخيرة أو النهايات» حول التسامى تعتبر تساؤلات غريبة وغير معقولة بالنسبة لأعداد متنامية من الناس.

ومن نافلة القول التأكيد على مدى التأثير العميق لهذا كله على وضع المسيحية والتجمعات المسيحية، لأنه أصبح لزاماً أن يتم إعداد كل ما تقدمه المسيحية من حياة وتوجهات بحيث يلائم هذا الوضع الفكرى، الأمر الذى يمكن وصفه من ناحية جوهرية بأنه توجه علمانى ضمن هذا العالم.

رابعاً : التدين الجديد

بيد أن هناك أمراً آخر لابد من أخذه فى الحسبان : إذ إن باستطاعة المرء أن يلمس اهتماماً جديداً بالدين وذلك وسط الثقافة العلمانية الغربية الآخذة بالتزايد . فهناك ضروب جديدة من الروحانية وحركات جديدة ذات طابع دينى . وعلى علماء الدين والاجتماع أن يدركوا ، وإن أدهشهم ذلك ، أن نبوءة « الزمان الخالى من الدين » لم تتحقق . فهذا العالم « الخالى من الدين » حافل بالدين الذى لم ينشأ فى معظمه داخل الكنائس الرسمية. والواقع أنه ظهرت سوق للفرص الدينية . فهناك على سبيل المثال ما يدعى « بالحركات الدينية الجديدة » من شتى الأصول . علاوة على ذلك ثمة أشكال غير منظمة فى الغالب للتدين الحر تتميز بالتوفيقية والانتقائية التى تجمع بين مختلف التقاليد . ويعمد هذا النوع من التدين دون تشدّد إلى اختيار تقاليد دينية من جميع أنحاء العالم منتقيًا منها تلك العناصر الواعدة بتجارب ذاتية شخصية . ولا يتأتى اتّباع وجهة النظر الدينية عن طريق التربية والتعليم ، أو من خلال تقليد معين ، أو أنماط ثقافية موروثة ، بل عن طريق الاختيار الفردى . **فهناك خليط من الطقوس السرية المؤمنة بالقوى الخفية ، والتنجيم ، والاعتقاد بالأشباح ، وطقوس الهنود الحمر ، ونتف دينية ألمانية وهندية وصينيّة وتبتية (نسبة إلى التّبت) .**

ويساعد على هذا التدين التوفيقى الانتقائى اتجاه التدويل والعولمة المتزايد ، الذى لابد أن تواجه ثقافتنا ومجتمعاتنا المزيد

منه . وبالإمكان أن نضيف إلى هذه المجموعة من الحركات الدينية مجموعات محدثة ترمى لأن تكون مملوءة بالروح القدس، ومجموعات « كارزمية » (تؤمن بالقوى الخارقة) وأصولية آخذة فى النشاط المتزايد على ما يبدو . ويظهر بعضها على شكل « تجمعات دينية حرة » أو أسقفيات حديثة التأسيس ، وبعضها يكافح فى سبيل الحصول على موقع ضمن الطوائف الدينية المسيحية . وبالنظر لوجود تعددية دون توجه واحد مما يوثر أيضًا فى النِّحل المسيحية ، فإنها تَعِد بالأمن والحياة الآمنة لمجتمع دينى يقوم على سلطة مستقرّة صارمة . وعلى النقيض من الفئات ذات المرونة والتحرك بحرية ، فإن هذه الأصولية الدينية الحديثة على درجة عالية من التنظيم ، مستقرة من حيث محتواها الدينى وقادرة على توفير معرفة « موضوعية » ومتوفرة دائمًا للسعى نحو الخلاص .

وأخيراً وليس آخراً ، لابد لنا من أن نتذكر وجود أديان عالمية أخرى ولا سيما الإسلام الذى يسعى ويحقق نجاحاً متزايداً فى احتلال موقعه أيضاً فى المجتمعات الغربية .

وموجز القول ، فإن بالإمكان وصف الوضع الدينى بأنه وضع متّسم بالتعددية الدينية . وها نحن نعيش بصورة متزايدة وسط ثقافة متعددة الأديان ، يمكن أن نجد فيها شتى وجهات النظر التى تقرر نوع الحياة للناس . ومعنى ذلك بالنسبة للفئات الدينية المسيحية أنها فقدت احتكارها الدينى . فقد أصبحت الكنيسة بل والمسيحية نفسها مجرد خيار واحد للسلوك الدينى من بين

خيارات أخرى معروضة فى سوق الفرص الدينيّة .

وإذا تعزز هذا الاتجاه نحو تعددية دينية جوهرية، فإنه ينطوى على فقدان المسيحية لمكانتها الثقافية بوصفها الدين السائد فى أوروبا. لقد تميزت الثقافات الآسيوية دائماً بالتعايش بين الأديان المتعددة، بل وأحياناً بالصراع بين هذه الأديان، بينما كانت المسيحية فى أوروبا هى الدين الوحيد الذى تمكن من اكتساب سلطة حصرية، والتغلب بصورة شبه تامة على جميع الأديان السابقة. لقد شكلت التعددية الدينية الثقافات الآسيوية بينما كانت المسيحية فى أوروبا هى الدين الوحيد الذى لا يوجد سواه، وكان هذا القول صحيحاً أيضاً بالنسبة لفترات العلمنة المتنامية. وأعتقد أننا لم ندرك بعد، ولعلنا لن نستطيع أن ندرك، ما الذى سيتمخض عن هذا التغير نحو التعددية الدينية الجوهرية.

خامساً : ملاحظات ختامية

ضمن المجتمعات الأوروبية العلمانية ، على الطوائف المسيحية ، أى المسيحية نفسها ، أن تواجه **تعددية أساسية من حيث العقلية والدين** . أما ما هو نوع الأسئلة والتحديات التى سيضعها هذا الموقف أمام المسيحية ، فلست مضطرًا لحسن طالعى أن أذكرها لكم فى هذه المحاضرة ، ويسرنى أن أحيلكم إلى محاضرات أخرى .

لكن أرجو أن تسمحوا لى بهذه الملاحظة القصيرة : **إن التعددية المعاصرة هى أيضاً سوق حافلة بالحقائق ، وقوى توجيه فكرى تقرّر حياة الناس . لذا فإنه خليق بالطوائف المسيحية ، والمسيحية ذاتها ، أن تتذكر أنه فى سوق الحقائق ، لا يصمد سوى أولئك الذين لديهم حقائق ليقولوها.**

ولا نستطيع أن نعرف كيف سيسير تطور الثقافة الغربية الواقع فى شراك دين منهك وعلمنة أصابها الإعياء . وفى ختام دراسته عن « الأخلاقيات البروتستانية وروح الرأسمالية » يشبّه ماكس فيبر الوضع العلمانى للغرب بقفص حديدى هربت منه الروح التى قامت بصنعه، ثم يردف قائلاً :

« لا أحد يعرف من سيعيش فى هذا القفص فى المستقبل ، أم سيظهر أنبياء جدد تماماً فى نهاية هذا التطور الهائل ، أم هل ستكون هناك ولادة عظيمة جديدة للأفكار والمثل القديمة ، أو ، إذا لم يحدث أى من هذا كله ، هل سيسود تحجر آلى مطعّم بهذا التطور ، وبذا يمكن القول بصدق « هناك أخصائيون لا روح لهم وعلماء لا قلوب لهم » ، وعندئذ يتصور هذا الباطل أنه بلغ من الحضارة شأوًا لم يبلغه أحد من قبل قط .

تعليق

الدكتور / محمد عمارة

هذا البحث:

يمثل لحظة صدق مع النفس . . عندما يشخص المأزق الذى قادت العلمانية إليه المسيحية الغربية ، وثقافتها ، وحضارتها ، وإنسانها ، لكنه يقف عند اليأس المتشائم . . والتشاؤم اليائس ، فلا يبصر لهذا المأزق مخرجًا ، ولا لهذه الأزمة حلاً .

تفريغ الدين من الدين:

« العلمنة : تحويل المعتقدات الدينية إلى مفاهيم دنيوية » ، أى تجريد الدين من الدين ، وعزل السماء عن الأرض ، بدعوى أن العالم مكتف بذاته ، والإنسان غير محتاج - فى تدبير العمران - إلى إله . تحويل الميتافيزيقى إلى فيزيقى . . بجعل الغيب : خيالاً ، والوحى : قوة مخيلة ، والنبوات : قدرات ذهنية .

العلمنة:

نابعة من التنوير الأوروبى ، الذى أحل العقل محل الدين ، وجعل شعاره : لا سلطان على العقل إلا للعقل ، واختزل مصادر المعرفة فى « الواقع المحسوس » ، وسبل المعرفة فى العقل والتجريب .

وكانت نتائج العلمنة : فقدان الدين المسيحى لأهميته فقدانًا كاملاً . وذلك بزوال أهميته كمرجع للمشروعية فى القانون ، والنظام ، والسياسة ، والتربية والتعليم ، بل وأسلوب الحياة الخاص بالأفراد . لقد فقد الدين دوره كقوة موجهة للحياة بشكل عام ، لا بالنسبة لقلة من المفكرين ، أو بعض الجماعات ، بل بالنسبة للسواد الأعظم من المجتمع .

وبعد معادلة :

دين بلا سياسة . . وسياسة بلا دين ، وإحلال السلطة محل الحقيقة الدينية فى صنع القانون ، تطور الأمر - فى اتجاه المزيد من العلمنة - فأصبحت الدولة هى المانحة للحرية الدينية ! ولما كانت تساؤلات الإنسان - بما هو إنسان - لم تتوقف بزوال مرجعية الدين لحساب العلمانية ، فلقد غدت العلمانية « دينًا دنيويًا » يحاول أن يجيب على تساؤلات الإنسان حول فهم الوجود ، ولذلك أقامت العلمانية ثالوثها البديل :

١ - التاريخ : كتاريخ علمانى للخلاص .

٢ - والمسيحانية السياسية (مجىء المسيح المنتظر) .

٣ - والعلم كقوة علمانية للإيمان .

لقد أصبحت القيادة بيد : « أخصائيين لا روح لهم . . وعلماء لا قلوب لهم » !

أزمة العصر العلمانى :

لكن العلمانية ، التى أقامت حداثة القطيعة المعرفية مع الدين ، واستبدلت « الإيمان العلمانى » بـ « الإيمان الدينى » ، وأحلّت أقانيم : « القناعات العقلية » و « الحقائق العلمية » محل الحقيقة الدينية ، قد وصلت الآن هى الأخرى إلى مأزق خانق ، وأزمة حقيقية للإنسان ، والحضارة . فالقناعات العقلية الأساسية قد غدت مفتقرة إلى اليقين ، والحداثة العلمانية غير واثقة من نفسها - فما بعد الحداثة قد أغرقت الحداثة فى العدمية[1] ، والعبثية ، والتفكيكية - ومفهوم التقدم العلمانى تزول أهميته ، وانهيار الماركسية نموذج للمصير الذى ينتظر .

المسيحانية السياسية :

وإدراك الإنسان - كلما ازداد علمًا - تزايد مساحة المجهول ، قد أفقد العلم العلمانى أهميته كقوة من قوى الإيمان . « وهكذا فقدت الآمال العلمانية - كبديل للخلاص - قوتها الثقافية ، فوصلنا إلى

(١) العدمية : نزعة فلسفية تقوم على إنكار وجود أية حقيقة ثابتة ، فى الفلسفة والأخلاق والسياسة ، فالقيم عندها مجرد وهم وخيال ، وهى ضد الدولة والسلطة ، ترى فيهما سلبًا لحرية الإنسان .

الأزمة ، لا فى المسيحية الغربية وحدها ، وإنما فى الثقافة العلمانية للحداثة أيضًا . وكما أصيبت المسيحية بالإنهاك ، فلقد أصيب العصر الحديث بالإعياء أيضًا » ! - لقد تحققت نبوءة « نيتشه » ، عن التطور الغربى ، الذى سيفقد فيه الناس « نجمهم » الذى يهتدون به ، فتصبح الحياة تافهة ، ذات بعد واحد . ونبوءة «ماكس فيبر » عن تسلط السلع والمصالح المادية على البشر ، الأمر الذى جعل الغرب يعيش فى قفص حديدى هربت منه الروح التى صنعته .

لكن هذ الفراغ الموحش ، الذى انتهت إليه الثقافة الغربية : القفص الحديدى . . الذى ماتت فيه المسيحية أو أنهكت . . وأفلست فيه الحداثة العلمانية ، أو أصابها الإعياء ، قد زاد من حاجة الإنسان إلى اليقين الدينى . فبدلاً من أن تتحقق نبوءة الحداثة العلمانية عن « الزمان الخالى من الدين » ، ها هو الإنسان الغربى – الذى أنهكت العلمانية مسيحيته – يبحث عن الدين وروحانياته فى مذاهب ونحل وديانات شتى . طقوس سرية ، إيمان بالقوى الخفية . . والخارقة ، تنجيم ، الاعتقاد بالأشباح ، طقوس الهنود الحمر ، نتف من الديانات الوضعية – هندية ، وصينية ، وتبتية – ونزعات أصولية ، وأخيرًا « الإسلام ، الذى يحقق نجاحًا كبيرًا فى المجتمعات الغربية » .

فكأنما « الثمرة العلمانية » هى : فقدان المسيحية لمكانتها فى أوروبا ، وإفلاس البديل العلمانى ، وبقاء النزوع إلى الدين عند الإنسان الأوروبى !

عند هذا الحد ، من الوصف الدقيق والنظرة المتشائمة وقفت بنا صفحات هذا البحث ، فلم تشر - ولو مجرد إشارة - إلى مخرج - أى مخرج - من هذا المأزق الذى أخذ بخناق الغرب دينًا وثقافة وإنسانًا . وهنا تأتى التعليقات والإضافات التى أود أن أقدمها ، والتى أرجو أن تمثل إشارات إلى طريق الخروج من هذا المأزق العلمانى وهى إشارات أسوقها فى نقاط :

هناك سؤال ، لابد من طرحه ، فى مثل هذا المقام ، وهو : لماذا حدث ذلك مع المسيحية فى الغرب ؟ ولم يحدث مع الإسلام فى الشرق ؟؟

لقد تعرض الإسلام لهجمة علمانية مدعومة بالسلطة الاستعمارية ، على امتداد قرنين من الزمان . ومع ذلك فها هو عالم الاجتماع الإنجليزى « إرنست جيلنر » يقول : « إن النظرية الاجتماعية التى تقول : إن المجتمع الصناعى والعلمى الحديث يقوض الإيمان الدينى - مقولة العلمنة - صالحة على العموم ، لكن عالم الإسلام استثناء مدهش وتام جدًا من هذا ! إنه لم تتم

أيُّ علمنة فى عالم الإسلام . إن سيطرة الإسلام على المؤمنين به قوية ، وهى أقوى مما كانت من مائة سنة مضت . إن الإسلام مقاوم للعلمنة فى ظل مختلف النظم الراديكالية والتقليدية والتى تقف بين النوعين . . والإصلاح الذاتى ، استجابة لدواعى الحداثة - فى عالم الإسلام - يمكن أن يتم باسم الإيمان المحلى » وليس على حساب الإيمان .

إذن . . لإدراك أسباب هذا الذى حدث للمسيحية الغربية ولم يحدث للإسلام لابد من البحث المقارن فى الدينين وفى المواريث الحضارية للحضارتين .

إننى أدعو إلى دراسة عدد من العوامل والقضايا والأفكار التى قد تكون أسبابًا ساعدت على علمنة الثقافة الغربية وإنهاك المسيحية الغربية ، وذلك مثل :

١ - صورة « الله » ، وآفاق علمه وعمله فى الفكر الإغريقى - والأرسطى خاصة - حيث « الله » مجرد خالق للعالم ، لا علاقة له بتدبيره ورعايته ، فهنا جذور للعلمانية .

٢ - والمقاصد الدنيوية - اللا أخلاقية - للقانون الرومانى ، قانون المنفعة غير المضبوطة بمقاصد الدين وأخلاقياته ، فهنا جذور للعلمانية .

٣ - والفصل اللاهوتى بين ما لقيصر وما لله ، والذى فتح الباب للعلمانية .

٤ - وعقيدة الصلب ، وهل مهد موت « الابن » فى اللاهوت لموت « الأب » فى الثقافة العلمانية ؟

٥ - والثنائية الحادة والمتناقضة - فى التطور الغربى - بين :

(ا) لاهوتيين لا عقول لهم .

(ب) ورد الفعل الذى أثمر : أخصائيين لا روح لهم ، وعلماء لا قلوب لهم !

أدعو لدراسة هذه القضايا والعوامل فى ضوء نظائرها فى الإسلام :

١ - صورة نطاق عمل الذات الإلهية : فالله ليس مجرد خالق « وإنما خالق ومدبر » ﴿ألا له الخلق والأمر﴾ ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ (٥٠)﴾ [طه : ٤٩ ، ٥٠] .

٢ - وعلاقة الدين بالدنيا : التمييز ، لا الفصل ولا الوحدة . ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ ... (١٦٣)﴾ [الأنعام : ١٦٢ ، ١٦٣] .

- العطف والمغايرة ، فالدين لله والوطن للجميع ، والوطن والجميع لله أيضًا .

٣ - وعلاقة الشريعة بالفقه .

٤ - وعلاقة العقل بالنقل ، فلا مقابلة بين العقل والنقل ، لأن مقابل العقل هو الجنون ، وليس النقل ، ونحن نقرأ النقل بالعقل ، ونحكم العقل بالنقل .

- مصادر المعرفة ، وسبل المعرفة .

٥ - وعلاقة الذات بالآخر .

- التعددية : فى الشعوب والقبائل ، والألوان والأجناس . فى الألسنة واللغات . . أى القوميات . فى المناهج . . أى الحضارات . فى الملل والشرائع والديانات .

وأخيراً:

فإذا كانت « المسيحانية السياسية » - أى الإيمان بمجىء المسيح المنتظر - هى واحدة من عقائد « الثالوث العلمانى » - الذى تشكون منه - فلقد أصبحنا نحن ضحايا هذه « المسيحانية السياسية - بالتأييد المسيحى الغربى للاغتصاب الصهيونى للقدس ، وتهويدها ، والتوجه لهدم المسجد الأقصى ، وإقامة

الهيكل على أنقاضه . فهل تساعدونا فى مواجهة آثار هذه الثمرة المرة من ثمار العلمانية ؟! أم تلتزمون الصمت ، وتدعوننا وحدنا نواجه مخاطر أمراض علمانيتكم الغربية ؟!

إن القدس – تحت الاحتلال الصهيونى – ستصير إلى ما صارت إليه « تل أبيب » : أول مدينة فى العالم فى الدعارة والانحلال ! فلنتعاون كى لا يكون هذا هو مصير القدس : قبلة الأنبياء وبلد المقدسات .

وإذا كانت الشكوى هى من فقد المسيحية مكانتها الثقافية ، كدين سائد فى أوروبا ، فلم لا تكون الأولوية ، بالنسبة للمسيحية الغربية ، هى « تنصير أوروبا » بدلاً من « تنصير المسلمين » ؟

ولم لا ترفع شعارات من مثل : « أوروبا مسيحية سنة ٢٠٠٠ م » بدلاً من : « إفريقيا مسيحية سنة ٢٠٠٠ م » ؟ لم لا يكون هناك منطق فى ترتيب الأولويات ؟!

إن مأزق المسيحية الغربية يدعوها إلى التعلم من تجربة الإسلام ، لا إلى الصراع مع الإسلام ! كما يدعو المسلمين إلى التعلم من تجربة أوروبا مع العلمانية ، حتى لا نقع فى خندق المأزق الذى وقع فيه الأوروبيون ، وهذا هو الميدان الحقيقى لمؤتمرات الحوار .

الفهرس



نهضة مصر

للطباعة والنشر والتوزيع

أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة ١٩٣٨

إلى القارئ العزيز . .

في هذه السلسلة الجديدة :

إذا كان «التنوير الغربي» هو تنوير علماني ، يستبدل العقل بالدين ، ويقيم قطيعة مع التراث . .

فإن «التنوير الإسلامي» هو تنوير إلهي ، لأن الله والقرآن والرسول صلى الله عليه وسلم : أنوار ، تصنع للمسلم تنويرا إسلاميا متميزا .

ولتقديم هذا التنوير الإسلامي للقراء ، تصدر هذه السلسلة ، التي يسهم فيها أعلام التجديد الإسلامي المعاصر :

- د . محمد عمارة
- المستشار طارق البشري
- د . حسن الشافعي
- د . محمد سليم العوا
- ا . فهمي هويدي
- د . يوسف القرضاوي
- د . سيد دسوقي
- د . كمال الدين إمام
- د . عبدالوهاب المسيري
- د . شريف عبد العظيم
- د . عادل حسين
- د . صلاح الدين سلطان

وغيرهم من المفكرين الإسلاميين . .

إنه مشروع طموح ، لإنارة العقل بأنوار الإسلام .

الناشر

29



نهضة مصر